**المحاضرتان السابعة والثامنة :**

**المناظرة اللغوية وأثرها في ظهور المذاهب النحوية0**

**لقد شهد القرن الأول الهجري حركة لغوية سعت لحفظ اللغة ومعالجة فساد الألسن وانتشار العجمة أثر الاختلاط السكاني الناجم عن اتساع الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التي جرت في العصر الراشدي وكان بدء تلك الحركة على يد الإمام علي ( عليه السلام ) , فقد قال أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) , قال : دخلت على أمير المؤمنين علي ( عليه السلام ) فوجدت في يده رقعة , فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال ( عليه السلام ) : « إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ( الأعاجم ) فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه » ثم ألقى إليَّ الرقعة وفيها مكتوب : « إن الكلام كله اسم وفعل وحرف , فالاسم ما أنبأنا عن المسمى , والفعل ما أنبئ به , و الحرف ما جاء لمعنى » وقال لي : « انحُ هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك » ، وورد اسم أبي الأسود عند ابن سلاّم الجمحي ( ت 231 ه) في كتابه طبقات فحول الشعراء موصوفاً بأنه : رجل أهل البصرة وفد وصفهم ابن سلاّم بقوله : وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية ( ظ 1 / 12 ) 0**

**فالإمام ( عليه السلام ) قام بالعمل الريادي تابعه فيه أبو الأسود الدؤلي ( حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقية ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس ، فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الرفع والنصب والجر والجزم ) والقول ليونس بن حبيب كما نقله عنه ابن سلّام 0 ( راجع المصدر السابق 1 /12 ) 0**

**فانتظمت المجالس اللغوية منذ عهد أبي الأسود الذي كان لمجلسه أثر كبير في تخريج مجموعة من العلماء هم تلامذته الذين حملوا راية الحركة اللغوية من بعده , فحلقة أبي السود الدؤلي أولى الحلقات ومجلسه أول المجالس العلمية التي انقطعت لضبط اللغة ووضع قواعد وأسس تعليمها حفظاً للغة أشرف كتاب وخير أمة أخرجت للناس ومنعاً للعجمة من أن تلوكها الألسن فيستشري اللحن والفساد 0**

**ثم اتسعت مجالس وحلقات اللغة في المساجد حتى اشتكى أحد الفقهاء من مزاحمتها حلقات الفقه والحديث فيما بعد , فقد قال ابن سيرين : «لقد بغَّض إلينا هؤلاء المسجد » , وكانت حلقته إلى جانب حلقة ابن أبي إسحاق الحضرمي0**

**وأمر طبيعي أن يظهر الاجتهاد في المسائل اللغوية بعد أن يكثر علماء اللغة وتختلف آراؤهم وتتعدد مجالسهم وكان ذلك الاجتهاد متعدد الآراء ينصب في الأعم الغالب على التفسير اللغوي في غريب القرآن والاختلاف في قراءاته , وما يثير ذلك الاختلاف في الإعراب أو تفسير الشعر والغريب من الألفاظ عامة , وقد حدد عبد اللطيف البغدادي مهمة اللغوي والنحوي والمحدِّث والفقيه حينما قال : « اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه , وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه , ومثالهما المحدِّث والفقيه فشأن المحدِّث نقل الحديث برمته ثم أن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه يبسط عِلَلَهُ ويقيس عليه الأمثال والأشباه » 0**

**فكانت المناظرة تقع من أجل تحصيل العلم بين التلميذ وأستاذه أو بين الأقران أنفسهم على سبيل التعلم وتقريب العلم للاهام وتبادل المعرفة وما يكنزه كل منهم من ذلك العلم 0**

**وبعد أن يقطع الجهد العلمي شوطاً في وضع أصول النحو وضبط قواعد اللغة يتكفل في بروز الرؤساء ويتضح التمذهب النحوي ضمن نطاق البصرة أول الأمر فيظهر التنافس بين الرؤساء وتعبر عنه المناظرة التي كانت وسيلة التلاميذ في نشر آراء أساتذتهم ووسيلة من وسائل الأساتذة في بث مذاهبهم وتفنيد مذاهب غيرهم ,كما أن طبيعة اللغة العربية وما انطوت عليه من تعدد اللهجات التي يسميها اللغويون – اللغات – كانت سبباً في الخلاف بين اللغويين على قدر السماع أو بحسب الانتماء فكلما نهل العالم سماعاً من البادية زادت قدرته على التفسير اللغوي وتصحيح ما يظنه خطأً وتخطئة ما أو وووةىىلاريظنه صحيحاً، والانتماء إلى قبائل الشمال أو الجنوب يؤثر كذلك سواء أكان انتماء العالم أو الفصيح الذي يسمع منه من الأعراب ولكن الرئيس المتضلِّع فيهم يحرص على أن ينهل من كل لغات العرب الشمالية والجنوبية وهذا أمرٌ لازمٌ مادام القرآن قد أخذ به وكذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أحاديثه فقد جاء كل من القرآن والحديث النبوي الشريف على وفق سنن العرب في كلامها ولم يخالف تلك السنن قط 0 فوقعت المناظرة في القراءات القرآنية 0**

**وبعد أن تقطع المسيرة اللغوية أشواطاً تتسع لها حاضرة الكوفة التي نشط رجال العلم فيها إلى البادية ؛ ليأخذوا اللغة من أفواه أهلها الفصحاء في باديتهم ، فيتسم جهد الكوفة العلمي بالاعتماد على السماع وتغليبه على القياس بينما يتجه البصريون منسجمين مع بيئتهم العقلية اتجاهاً يتوسع في القياس ، فيعد ذلك أساساً في الخلاف بين مذهبين أو مدرستين اتضح عطاؤهما العلمي فأعطى اللغة العربية ما أعطى من اتساع آفاق البحث واتساع دائرة علومها ؛ فجرت المناظرات بين علماء المذهبين 0**

**مداخلــــــة**

**المناظرة شيء من الرقي ، وهو من نتاج الحضارة العربية الإسلامية ، وهو يختلف عن الجدل والاحتجاج ويمكن أن نطلق عليه أنه : ينطوي على قواعد الحوار الحضاري ويهدف إلى خدمة الحقيقة والكشف عنها , ولو تُرك للحوار والمناظرة فعلهما ؛ لأصبح المذهب الأفضل هو المذهب المشاع والأشهر , ولكن البعد السياسي هو الذي أدى إلى انتشار المذاهب الأربعة في الفقه دون غيرها وأدى ذلك إلى إذكاء روح الفتنة والابتعاد عن الحوار , وأدى تدخل الحاكمين لصالح بعض المذاهب دون غيرها إلى إضعاف روح الحوار 0**

**قرأ رجل بحضرة الإمام الصادق ( عليه السلام ) الآية :** **وكنتم خير أمة أخرجت للناس**  **فقال له الإمام : كيف تكون خير أمة وقد قتلت الإمام علي والحسن والحسين ( عليهم السلام ) ؟ قال الرجل : إذن كيف يا ابن رسول الله ؟ قال الإمام ( عليه السلام ) قُرئت :**  **وكنتم خير أئمة أخرجت للناس**  **, ولكن حينما يسأل الناس الإمام الصادق ( عليه السلام ) كيف نقرأ يا ابن رسول الله ؟ يقول لهم : « إقرأوا كما يقرأ الناس » أو « إقرأوا كما عُلمتم » ولكن أمام خاصتهم كانوا يذكرون الأمور الخاصة 0**

**( وعقب الدكتور رحيم على لفظة (التحريف) التي وردت في كتاب (الكافي) للكليني , قال الدكتور وهو يلتمس العذر للشيخ الكليني : إنما يقصد بالتحريف : بعض القراءات التي لايصح سندها، وفساد التفسير والتأويل)0**

**وذكر الدكتور الآية الكريمة من قوله تعالى :**  **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً [هود:17], وقرأ الإمام الصادق ( عليه السلام ):**  **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى , والفرق واضح بين القراءتين ففي الأولى : إماماً : حال من كتاب موسى , أما القراءة الثانية فـ:إماماً : حال من شاهد و(شاهد) هو الإمام علي( عليه السلام ) وهذا ما أكده القرطبي والطبري وغيرهما , والقراءتان السابقتان لا تتعارضان وتوقيف القرآن , لأن التوقيف في القرآن يعني ترتيب الآيات ضمن السور وليس ترتيب الكلمات داخل الآية 0**

**فالقراءات تيسير من الله (عزَّ وجلَّ) على أمة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) , وبعد مرور العصور أصبحت توسعة في الدلالة تهدف إلى وضع خيارات متعددة أمام المشرع لاستنباط الحكم الشرعي الأنسب لروح العصر وهذا يؤكد صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان 0**

**لذلك حينما جاء (أُبيّ بن كعب) وبعض الصحابة وجاء (ابن مسعود) وبعض الصحابة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)  نظر في اختلافهم في القراءة وكان أُبيّ قد اعترض على قراءة ابن مسعود فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)  : هكذا نزلت , يقول أُبيّ فداخلني شيء من التكذيب فضرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)  على صدري فأخذني العرق وشعرت بأن الله (سبحانه وتعالى) قريب مني فعدت إلى رشدي وصدقت بالحق , فالرسول وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى[النجم:3-4] 0**

**وكان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم )  قد أسرَّ شيئاً في ذلك المجلس كما يروي أُبيّ وهو المجلس الذي جاء به ابن مسعود لاختلافهما في القراءة وتصديق النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لهما على لسان أمير المؤمنين ( عليه السلام ) هذه المرة إذ سكت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)  وتكلم علي( عليه السلام ) فقال لهما : اقرءا كما عُلمتما فكل حسن جميل 0**

**ويعود تاريخ ما وصل إلينا من المناظرة في النحو وموضوعاته إلى عهد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ) عن عمر بلغ ثماني وثمانين سنة , وكان يُقال : عبد الله أعلم أهل البصرة وأعقلهم ففرَّع النحو وقاسه وتكلَّم في الهمز حتى عُمِل فيه كتاباً مما أملاه وكان رئيس الناس وواحدهم 0**

**وقد عُرف عن الحضرمي حرصه على النقد والتقويم النحوي لاسيّما في الشعر وقد اشتُهرت في ذلك متابعاته لشعر معاصره الفرزدق ، وحملة الفرزدق عليه ، إذ هجاه وذكره في بيت من شعره وصار ذلك البيت من شواهد النحو فيما بعد بسبب قول ابن أبي إسحاق الحضرمي : عن الفرزدق لحن في ذلك البيت :**

**فلو كان عبد الله مولًى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا**

**فاعترض ابن أبي إسحق على كلمة (مواليا) المنصوبة في موضع الجر وكان على الفرزدق أن يقول (موالٍ) 0 وحضر الفرزدق مرةً في مجلس ابن أبي إسحاق فقال له : فكيف تنشد هذا البيت لذي الرمة :**

**عينان قال الله كونا : فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمرُ**

**فقال الفرزدق :كذا أنشده 0**

**فقال الحضرمي : ما كان عليك لو قلت : فعولين ؟**

**فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبّح لسبّحت , ونهض فلم يعرف أحد في المجلس قوله 0**

**فقال ابن أبي إسحاق لمن في المجلس : لو قال : فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما , ولكنه أراد هما يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر 0**

**هذه لمحة سريعة عن بواكير البحث والمناظرة في النحو وموضوعاته , وقبل أن نستطرد في المناظرات اللغوية والنحوية التي مثلت مذاهب النحاة المبرزين ضمن البصرة أو ضمن الكوفة أو بين المدرستين , لنا أن نتكلم على منهج البحث في الكوفة والبصرة ثم ننظر في طبقات النحاة كذلك 0**